نموذج إنسان الإثنولوجيا السابيري
قراءة أبستيمولوجية
في مرجعيّات اللسانيات الأمريكية

أ.م.د خالد خليل هويدي
كلية التربية ابن رشد – جامعة بغداد
م. أنفال جاسم محمد
كلية التربية ابن رشد – جامعة بغداد

www.mercj.journals.ekb.eg

أ.م.د. خالد خليل هويدي & م. أنفال جاسم محمد

الملخص:

فكرةُ البحثِ: تقوم على قراءة تاريخ الأفكار اللسانية ابستيميا بخاصة الانعطافة اللسانيّة المهمة التي تمت على يد الأنثربولوجيين اللسانيين في أمريكا؛ إذ كانت متميزة عن السائد في عصرها لا سيما إنها لم تتأثر بالنماذج الأوربية آنذاك، لتفصح عن شخصيّة مستقلة للبحث اللساني الأمريكي، وهذا يلفت النظر، ويثير الاستغراب.

سبب اختيار البحث: الفكرة أعلاه تحفّز على التنقيب في تلك المرجعيات والظروف الفكريّة والواقعية التي شكلت النظام الابستمولوجي لنموذج سابير ورفقائه وكيفية حضورها في مفهوماتهم اللغويّة وما انطوت عليها من رؤى فلسفية دارت حول العالم والمقدس والإنسان، وهذا الأخير مثّل فكرة إشكالية استدرجت اللسانيين للبوح عن بواطنهم أكثر من سواها؛ فخلفها تقبع الكثير من الأسرار؛ لذا اخترتها بوصفها مرايا لتصوراتهم بل لشعورهم الخاص وهم منهمكون في داخل مختبرهم اللغوي وليس هم متأملين في خارجه وحسب؛ اذ يحضر ما هو خارج المختبر إلى داخله فتبدأ الموضوعيّة بالاضطراب، لتؤكّد نسبيتها.

هدف البحث: البحث يحاول أن يجيب عن سؤال ما نموذج الإنسان الذي طرحه سابير وجماعته ليحدث قطيعة ابستيمية مع غيره من نماذج؟ ولماذا؟ وكيف تمثّل في بحثهم اللغوي؟.

الكلمات المفتاحية: (نموذج الإثنولوجيا، الإنسان، اللسانيات الأمريكية، المرجعيات، الأنثروبولوجيا، النسبية اللغوية، الحتمية اللغوية).

مضامين البحث: عالجت أولًا: النموذج اللغوي الأوربي ومشكلة اللغات الهندو أمريكية وثانيًا: مرجعيات نموذج إنسان الإثنولوجيا التي ضمت مرجعيتي الفلسفة العقلانية والأنثروبولوجيا، وثالثًا: المرجعيات وأثرها في إحداث القطيعة اللسانية وانتهت بأبرز النتائج التي توصل إليها البحث.

M.E.R.C
ISSN 2536-9504

Abstract:

The idea of the research is based on reading the history of the Epistemological ideas, especially the important linguistics, which was made by the Lassian anthropologists in America, as it was distinguished from the prevailing in its time, especially since it was not influenced by the European models at the time, to reveal an independent figure of American linguistic research, And raises the surprise; which stimulates the exploration of those references and the intellectual and realistic conditions that formed the system of the Epistemological model of Sapir and his companions and how And how to attend them in their linguistic concepts and the implications of philosophical visions around the world and the sacred and human, and the latter is like the idea of the problem of the Lassanyans to reveal their own belly more than others; behind it lies a lot of secrets; so I chose as mirrors for their perceptions but for their own feeling and they are immersed in their laboratory As they bring what is outside the laboratory into it, objectivity starts to disturb, to confirm its relativeity.

middleeast2017@gmail.com M.E.R.C ISSN 2536-9504

أولًا– النموذج اللغوي الأوربي ومشكلة اللغات الهندو أمريكية:

النموذج الأوربي (التاريخي والمقارن) [١] لا يواجه مشكلات تتعلق بعلمنة اللسانيات عبر ضبط موضوعها وصولا إلى استقلاليتها، ثم إنه لم يكن عائقا لقطيعة ذات طبيعة سوسيرية[٢]؛ إذ يبدو الأمر مختلف أنه في مواجهة مشكلات الهوية بما تمثله الهوية من مكونات لا حصر لها سياسة، وعرق، وعلم، وطقس... إلخ. الأمر مختلف – حقًا – لأن ثمة صراع أمريكي أوروبي بدا على صعيد الفكر واضحًا، فاللسانيون الأمريكيون يرفضون أن يكونوا أتباعًا للنموذج الأوروبي (التاريخي والمقارن)؛ اذ لكل منهما اهتماماته على صعيد العلوم الإنسانية في الأقل، وبنظرهم اللغة ليست كعلم الفيزياء تتعدم الجغرافيا والهويات أمام منظومة قوانينه. ودليلهم على عدم صلابتها أنهم واجهوا اضطرابات بليغة في ترويض النموذج الأوروبي وتطبيقه على اللغات الهندو – أمريكية.

أخذت الصعوبات تتراكم حتى أدرك الأمريكان أن النموذج الأوروبي بات متأزمًا، فاللغة في أوروبا لغة حضارة مكتوبة وفي أمريكا لغة مجتمعات بسيطة منطوقة، وعمر الدراسات اللغوية فيها يتجاوز ألفي سنة وفي أمريكا بالكاد في طفولة البحث، واللغة السنسكريتية التي صاغت اللسانيات التاريخية أدواتها من معطيات متنها، تلتقي بعائلة اللغات الأوروبية، وهي نفسها لا تربط من قريب، أو بعيد باللغات الهندو أمريكية هذه المفارقات جمعاء تنتج مشكلات في ازدياد وتكرار دائمين، مهدت إلى ثورة أو قطيعة أو حل وهذه المفاهيم الثلاثة تحققت مع نموذج جديد ذي هوية أمريكية، وهذا ما يؤيد فكرة أن ((النظريات اللسانية قلما تكون بريئة)) [٣].

ظهر النموذج الجديد مع اللسانيين الأنثروبولوجيين وبالتحديد فرانز بواس ١٩٤٢ ثم إدوارد سابير١٩٣٩ الذي تتلمذ على يدي بواس، وكان أستاذًا لأحد أهم

middleeast2017@hotmail.com M.E.R.C ISSN 2536-9504

علماء النموذج أقصد بنيامين ورف ١٩٤١م، وفي الآن ذاته كتب متنا لسانيًّا مهمًّا أوضح فيه رؤية النموذج، وهو السبب الذي من أجله نسبت النموذج إليه(٤). المهم أن هؤلاء العلماء بدءوا يصوغون نموذجًا لسانيًّا أمريكيًّا، بيد إن أمريكيّته لا تعني محلية المفهوم وتقيده بحدود جغرافية أمريكا، بقدر ما يؤكد سلطة الظروف في تخطيط المعرفة وتشكيلها وفي الوقت نفسه تصدير مفاهيم عامة لا تنحصر بمرحليّتها.

لكن ما السؤال الذي طرحه هذا النموذج؟ وما إنسانه؟ وما مرجعيات طرحه وتمثلات الإجابة عنه وعلاقتها بإنسانه؟ السؤال المركزي الذي طرحه هو ما علاقة اللغة بالفكر أو الثقافة عمومًا؟ وإنسانه إنسان الإثنولوجيا أما مرجعيات النموذج فهي مشغل البحث.

ثانيًا– مرجعيات نموذج إنسان الإثنولوجيا:

١. الفلسفة العقلانية:

إنها المرجعية النظرية للنموذج، وفيها يتموضع السؤال الدائم عن علاقة اللغة بالفكر وبالثقافة؛ إذ يجيب عنه الفلاسفة ولا يكتفون من إجابته انه جدلي يكرر في كل مرة، لكن الجواب لن يكون واحدًا. إذن هو سؤال قديم إلا أن طرحه تبلور لعوامل سياسية وعرقية في القرن السابع عشر مع الفلاسفة الألمان(٥): كانط ١٨٠٤م، وتلميذه هيردر١٨٠٣م، ومن بعدهما همبولدت ١٨٣٥م؛ لإثبات تميز العقل الألماني؛ إذ وجدوا أن اللغة مرآة عقلية الشعب وعلى منوال هذه الميتافيزيقا نسج هيردر، وهمبولت نظريتهم في فهم علاقة اللغة بالفكر.

يرى هيردر أن رؤية العالم الخارجي عند أمة ما مفروضة عليها بحسب كيفية تنظيم لغتها، وهذا يعني أن ما يقع في الخارج يتعدد بناء على تعدد أشكال النسق

اللغوي وكيفياته أي بناء على شكل اللغة، ومع هذا اعتقد أن اختلاف اللغات راجع إلى اختلاف الظروف إلخارجية، وعلى هذا يكون الإنسان خاضعًا في رؤيته العالم لتشكيل لغته [٦]، لكن همبولدت الفيلسوف والسياسي واللغوي ذهب بعيدًا في عقلنة اللغة ساعيًا – لأغراض عرقية – إلى قلب المعادلة بشكل صريح ومتطرف؛ إذ لم تعد اللغة لديه مستجيبة للعالم إنما العالم من يخضع لتصوراتها وهو في هذا يماثل هيردر، لكن الذي استجد أنه فسّر اختلاف اللغات باختلاف العقول نفسها وليس الظروف إلخارجية فاللغة ((لها صورة داخلية تجبرنا على الحديث بطريقة معينة، وعلى تصور العالم إلخارجي من خلال اللغة ذاتها، وليس من خارجها. أن الفرق بين اللغات يكمن في اختلاف هذه الصور الداخلية وخصوصياتها بالنسبة إلى كل لغة على حدة، وليس في اختلاف الأصوات والصيغ الصرفية أو الألفاظ)) [٧] هذا الرأي قائم على مفهوم الحيوية إذ ((كل لغة، مثل أي جسد حي، تتضمن بالقوة "كنواة" تحولاتها اللاحقة كلها)) [٨]. وهنا تضطلع مركزية اللغة – بعدّها عقلا– في الهيمنة على العالم، فهي من يمتلكه ويتحكم به وهي من يمنح الأشياء تصوراتها وهي من تسحبه من الموضوع إلى الإدراك، وأخيرًا يصل همبولدت في النهاية إلى غايته العرقية من أن اللغة الألمانية تماهي عبقرية العقل الألماني، ونتيجة المتحصلة من الافتراضات السالفة أن تفوق الشعوب يعود إلى لغاتها؛ ففي مصنعها يُنتَجُ العقلُ، وليس في خارجه هكذا تصبح اللغة قدرًا على الإنسان والشعب معًا لا مهرب منه. والحال لا يقصي سؤال عن جذور اللغة، فإذا كانت اللغة تخلق العالم فكيف خلقت اللغة ذاتها؟ هذا السؤال يحيلنا إلى العلاقة الإشكالية بين اللغة والمجتمع، لكن يبدو أن اللغة عندما تتوجد بعد مراحل تكوينية طويلة تكون محملة بما يساعد على خلق الشعوب وتميزها، وهذا ممكن افتراضيًّا، أما كيف نتعامل مع لغة عبقرية بقيت في وقت انهارت عقليات شعوبها وانتقلت إلى ما وراء لائحة التاريخ، وكيف نتعامل مع أمة نهضت بلغة كان

ISSN 2536-9504 mdde-east2017@hotmail.com

شعبها بدائي؟ فهذا ما يصعب على أطروحة همبولدت أن تجيب عنه اللهم إلا بمبررات الميتافيزيقيا كما في أصل الفكرة الألمانية.

وإذا كان الفلاسفة الألمان تغيّوا من وراء تفسيرهم العلاقة بين اللغة والفكر إثبات تفوق عقل شعبهم على سواها، فإن فرانز بواس استثمر تنظيرهم اللغوي – لا سيما آراء هبمولدت – في أعماله حول الألسن الهندو أمريكية مؤسسًا بذلك اتجاهًا عقليًّا في التفكير اللساني الأمريكي (٩)؛ إذ رصد فكرة ذات قيمة محورية لديهم، إنها فكرة النسبية اللغوية، وخطورة هذه الفكرة ناشئة من تحول النسبية اللغوية إلى وسيلة لهدم النموذج الأوروبي (التاريخي والمقارن) المتأسس على اللغة السنسكريتية، وبهذا وجّهت فكرة النسبية اللغوية ضربة قاضية إلى النموذج الأوربي، والطريف أن تفكيك النموذج جاء من داخل صرح الفكر الأوربي نفسه. وتبعا لفرضيتهم في عقلنة اللغة من جهة ونمذجة السنسكريتية من جهة ثانية، يغدو الإنسان الأوروبي الإنسان المثال أو نموذج يقاس عليه غيره من بني البشر.

أدرك بواس أنه ما دام لكل لغة خصوصيتها في رؤية العالم، فلماذا إذن على اللغات الهندو أمريكية أن تتبع نموذج اللغة الأوربي؟ أليس هذا – وبصورة ضمنية – إشهار بتبعية الإنسان الهندو أمريكي للإنسان الأوربي؟ من هنا بدأت الثورة على النموذج الأوربي ليعلن بواس الانفصال عنه بناء على معطى النسبية اللغوية(١٠). لكن هذه المرة ليس لإثبات تفوق أمة على أخرى، إنما لتحقيق متطلبات علمية وصفيّة تؤكد أن لكل لغة خواصّها وأن الأداة واحدة (النسبية اللغوية) والغايات مختلفة.

وأخيرًا، لا بد من الإشارة ما دمنا نبحث في المرجعيات النظرية إلى أن إدورد سابير لم يخف رجوعه إلى آراء كروس في ربطه بين المعنى والفكر يقول سابير: ((أنا مدين كثيرا لسداد نظرته؛ إذ الإشكال اللغوية والتطورات التاريخية فضلا عن

أهميتها في ذاتها توفر كشفا بالغ القيمة لفهم عدد من القضايا الأكثر صعوبة وتمنعًا في مجال التعرف على باطن التفكير... وهذه القيمة رهينة في المقام الأول بالطبيعة اللاشعورية أو اللا عقلية للغة)). [١١]

٢. الأنثروبولوجيا:

إذا الفلسفة العقلانية تمثّل المرجعية النظرية للسانيات الأمريكية فالأنثروبولوجيا تكوّن المرجعية العملية لها، بل هي أعظم من سابقتها تأثيرًا في صياغة اللسانيات وإنسانها وتطبعهما بطابعها الأنثروبولوجي ، ولا غرابة؛ فقد انبثقت اللسانيات في الجامعات الأميركية من أقسام الأنثروبولوجيا في حين ولدت اللسانيات العامة في جامعات أوروبا من رحم أقسام الألسن[12]؛ وهذا الاختلاف في منبع العلم يعني تغاير الغايات والأدوات، والأبنية، وأخيرًا النتائج، وبعدُ، فماذا ستتبئ هذه المغايرة بغير حصول قطيعة معرفية خارجية، لا بدَّ منها، مع النموذج الأوروبي التقليدي بل حتى النموذج الجديد أعني نموذج لسانيات سوسير.

مرجعية الأنثروبولوجيا لم تكن إضافة ترفية؛ إذ يكفي ما موجود من نماذج لغوية سائدة آنذاك؛ فاللسانيات الأمريكية ما انوجدت لولا حاجة البحث الأنثروبولوجي نفسه بعبارة أخرى أنها مرجعية ضرورية، حيث الكلام جزء من الإثنولوجيا(الثقافة) وهذه الأخيرة جزء من الأنثروبولوجيا بحسب اللسانيين الأنثروبولوجيين[13]، عليه يستلزم أن يتميز إنسان اللساينات الأمريكية – بعبارة أخرى إنسان الإثنولوجيا – عن الإنسان المثالي الذي حضر في اللغويات التقليدية في أوروبا، وحتما سيكون ذا سمات مختلفة إلى حد بعيد عن إنسان العلمية السوسيري.

ثالثًا– المرجعيات وصياغة القطيعة اللسانية:

ولأهمية هذه المرجعية العملية في تخطيط النموذج اللساني الإثنولوجي، سأوضّح انعكاساتها في حدوث قطيعة معرفية مع اللغويات الأوروبية التقليدية إلى درجة كبيرة واللسانيات السوسيرية بدرجة أقل، ويمكن إجمالها في ثلاثة محاور ابستيمية تمظهر فيها الانتقال إلى القطيعة أو حل المشكلة:

الأول– الانتقال إلى اللسانيات التطبيقية الآنية:

هاتان السمتان الأخيرتان (التطبيقية والآنية) لصيقتان بالأنثروبولوجيا، ولما كانت اللسانيات قد خرجت من صلبها، فبدهي أن ترث خصائصها. وهذا مسلك باتجاه الواقعية العلمية؛ إذ أمريكا قارة ما برحت تستكشف على الصُعد المعرفية كافة واللغة المحلية حينذاك تتجاوز الألف لغة، ولم يسبق أن درست دراسات وافية بل معظمها لم يدرس، ثم إنها – اللغات – دخلت في صراع غير متكافئ مع لغة المستعمر الانجليزي، وأخذت تستسلم بسرعة هائلة تمامًا مثلما فعل سكانها أمام هذا المد الجارف من الإنجليزية، وأمام هذه الظروف وأخرى كثيرة غيرها رأى فرانز بواس، وتلامذته أن عليهم أن يعجلوا في دراسة ما بقي منها والطريق الأصلح لذلك واقعيًّا – هو الوصف الآني، والتصنيف اللغوي عبر التدوين التسجيل الصوتي أي أرشفة اللغة، وتصنيفها من غير فرضيات تبتغي تكوين رؤية كلية عن الألسن عامة كما الحال في اللسانيات العامة واللسانيات التاريخية إلى حد ما؛ لذا حكمت الظروف صيرورة المنهج اللساني الأمريكي(14)، اللغة بحسب التوجه المنهجي الجديد مكون ثقافي، وإنسانها آني بعبارة أخرى هو عينة للوصف مقطوعة من سلسلة الاسر اللغوية، ولغته بلا نسب يكفي أن توصف بأنها هندو – أمريكية من غير استقصاء في عمق تاريخها.

الثاني– الانتقال إلى اللسانيات غير المستقلة:

عدم استقلالية اللسانيات ناشئة من مساحة اهتمام الأنثروبولوجي، وأولوياته التي يشتغل عليها؛ ففي الوقت الذي يعمد فيه اللساني العام إلى تنقية بحث اللغة من أي قضية خارجة عن حدود بنيتها الداخلية؛ تحقيقًا لموضوعية دراسته واستقلالها، يقوم اللساني الأنثروبولوجي بالبحث عن تلك الظواهر الثقافية التي حفزت الكلام وجعلته على ما هو عليه تارة وأخرى بالبحث في الأبنية اللغوية وما انطوت عليه من ظواهر ثقافية، وبالصورتين يحضر إنسان اللسانيات الأمريكية بصفته لاغيًا ثقافيًّا من غير أن تقطع اللغة علاقتها به، إنها اللغة من منظور ثقافي أو العكس وهذا يعني انهيار الموضوعية القائمة على فكرة دراسة اللغة لذاتها(١٥)، أما اللسانيات العامة، فإنها ترى إنسانها مجرد لاغ، تتحدد علاقته بلغته بحدود إنتاج أبنيتها. هكذا ((يعيش الألسنيون... في عالم مظاهر موضوعي، حيث تخسر الجمل والمعاني علاقاتها بمواضيع معينة وتفحص لافتراض وجود ميزات عامة فيها. فيخرجون من ذلك العالم فقط لجمع المعطيات، للقيام بمزيد من التحاليل مثلا. من جهة أخرى، يحاول الأنثروبولوجيون الألسنيون إيجاد طرق تسمح بإبقاء صلة بين الأشكال الكلامية ومنتجيها)) (16).

ويبدو أن سابير ضاق ذرعًا من فكرة استقلال اللسانيات وتجريد اللغة من منزعها الثقافي، مطالبًا بتوسيع أفقها؛ إذ ينقل جاكوبسون مجادلة سابير في مؤتمر للسانيين سنة ١٩٢٨، أي بعد أن اخذ نموذج سوسير بالانتشار في المجتمع العلمي وشرعت حلقة براغ تستلهمه في صياغة مفهوماتها، إذ يتنبأ سابير بمستقبل اللسانيات، فاللسانيون ((شاؤوا أم أبوا، " يجب أن يصبحوا معنيين أكثر فأكثر بعدد من المشكلات الانثروبولوجية، والاجتماعية، والنفسية التي تحتاج حقل اللغة "؛ لأنه " من الصعب على لساني حديث أن يحدد نفسه بمادة بحثه التقليدية. وما لم يكن هذا اللساني ضيق الأفق نوعًا ما، فإنه لن يستطيع إلا أن يشترك، جزئيًّا أم كليًّا، في

الاهتمامات المتبادلة التي تربط اللسانيات بالأنثروبولوجيا، وتاريخ الثقافة، وعلم الاجتماع، وعلم النفس، والفلسفة، وعلى نحو أبعد الفيزياء، والفسلجة)) (١٧).

إن ماهية الإنسان– بعدّه كائنًا ثقافيًّا– قارة في بنية اللغة، حيث يسكن إنسان الإثنولوجيا؛ إذ يسعى نموذجه باستمرار إلى توضيح العوامل التي تسمح بإنتاج تصورات ثقافية معينة دون سواها، ولكن لا يمكن القيام بذلك من دون إعادة اختبار مفهوم " اللغة " نفسه ففي اللغة تتشكل معظم تلك العوامل (18). وبهذا تؤكد اللسانيات – بصراحة – خصيصة ابستمية للعلوم الإنسانية تسمح بإمكانية تجاور نموذجين متزامنين ومتغايرين لكل منهما ظروفه، أقصد نموذج إنسان العلمية ونموذج إنسان الإثنولوجيا، بيد إنهما يتفقان على الثورة على النموذج السائد في عصرهما.

الثالث – الانتقال من المثالي إلى النسبي:

هذا المحور يتضاد كليا مع النموذج الأوروبي – وتحديدا – التقليدي ويمظهر نوعية الحل العملي الذي يقترحه نموذج إنسان الإثنولوجيا، وهو امتداد لآثار المحورين السابقين، فعندما يكون مجتمع جديد ومن ثم ثقافة جديدة يعني هذا إننا إمام إنسان جديد، إنسان لم يحدد سلفا بمثالية تتسيّد وفقًا لاستقراء ناقص لبعض السن أوربية. بدأت الحاجة إلى الانتقال عندما وجد اللسانيون الأنثروبولوجيون أن عليهم – بناء على مقتضيات واقعهم العلمي – ((فهم كل ثقافة من الداخل وليس بواسطة خريطة طريق أوروبية تهيمن عليها كسيّد)) (١٩)، وهذا يحيل إلى نفي أي وجود لإنسان مركزي أو مثالي تفرضه عليهم أوروبا كما في السابق(٢٠)، الواقع يفند الافتراض الأوروبي باستمرار بل كلما درس أرباب لسان جديد تحقق لديهم أن اللغات لا ترتبط بطريقة واحدة أو منهج واحد، إنها منصهرة أبدا بثقافات متكلميها والأصعب محاولة ترجمتها على طريقة تعتمد معيار النموذج الأوروبي؛ إذ تغدو الترجمة مستحيلة. المشكلات

راحت تتوالى حتى انتهى فراز بواس من كل ذلك إلى القول بالنسبية اللغوية وبالتالي الإنسان النسبي المحبوس في اللغة[٢١] بحسب النموذج الأمريكي لا الإنسان المثالي المصوغ أوربيا، مستخدما ((معرفته للغات الهنود الأمريكية ليثبت أن اللغات تصنف العالم بشكل عشوائي. فلكل لغة طريقتها إلخاصة في بناء مفرداتها لتقسيم العالم وتأسيس فئات من التجارب. ما يمكن تمثيله بعدة كلمات في اللغات الإنجليزية (الماء والبحيرة والنهر والجدول والمطر... إلخ) نجده ممثلًا بكلمة واحدة أو بمشتقاتها في لغة أخرى)) [٢٢]. فحوى القول: إن فرانز بواس يرفض التصنيف النموذج الأوربي؛ فاختزال اللغة يقتضي اختزال إنسانها الأمر الذي يوقعه في خطر تعميم يعتمد على استقراء عدد ضئيل من اللغات عدّت نموذجية، هذا من جهة ومن جهة ثانية أنه– النموذج الأوربي – ينطلق من التماثل لا الاختلاف متناسيًا أن اللغة كأي مؤسسة اجتماعية أو ثقافية رهينة بتنوع موطنها وإنسانها. ولعل سابير كان أقسى من أستاذه في نقد النموذج الأوربي، بل أنْ يجهرَ بأهمية تفكيك تعاليه وإنزاله إلى مستوى ينسجم وطرائق العلم لا شواذه، فهو برأي سابير لا يعدو أن يكون نمذجة لقبلية غير منتمية لطبيعة العلم بل إنه عائق ابستمولوجي يقف في وجه تقدمه وسابير لا يخفي من أن ((اللغة في أشكالها الأساسية تعبير علامي عن مشاعر الإنسان الحدسية التي يمكن أن تصاغ في العديد من الصور بقطع النظر عن درجة التقدم المادي للشعب الذي يستخدم تلك الأشكال أو تخلفه. ومن فضول القول إن تلك الأشكال تخضع إلى ميدان اللاوعي. فإن أردنا فهم كنه اللغة الحقيقي وجب علينا التجرد من " الأفكار" المفضلة[المسبقة] والتعود على النظر في الانكليزية ولغة)) [٢٣]. الحال يحتم على اللسانيين الأنثروبولوجيين تثوير اللسانيات متوسلين آلية إحلال الإنسان النسبي الحاضر في اللغات كافة، محل الإنسان المثالي، المقيد – في الواقع – بحدود اللغات الأوربية، في حين يُصدَّر على انه إنسان نموذجي أو مطلق.

ISSN 2536-9504

وعلى العموم لولا المتغيرات الحياتية التي خاض اللسانيون الأمريكان دراستها متسلحين بأدوات الأنثروبولوجيا لما تمكنوا من إحداث قطيعة خارجية مع النموذج الأوربي بحثًا عن حلول حقيقية لمشكلات تراكمت وتأزمت بل أغلقت باب الحلول في وجه النموذج القديم، الأنثروبولوجيا إذن ماثلة في فهمهم اللغة وطبيعتها حيث يتمركز الإنسان في وعيها الجديد؛ ليتخذ مظهرا أصيلًا ارتسم بطبيعة أدوات المرجعية الناشطة في صياغته.

middle-east2017@hotmail.com
M.E.R.C
ISSN 2536-9504

النتائج :

١- اهتزت مقولة الموضوعية التي تبناها النموذج اللساني الأوربي سواء نموذج ما قبيل سوسير أو السوسيري نفسه؛ إذ انفعلت الموضوعية بالظروف غير العلميّة – بنظر النموذج الأوربي – وتحول مفهوم العلمية إلى رؤية متحيزة تتلوّن تأويليّا بناء على دوافع الإيديولوجيا التي ينطلق منها اللساني بصرف النظر على واقعية النتائج من عدمها. ويعزز هذا اصطباغ النموذج السابيري بلون مرجعيته العملية – الأنثروبولوجيا – التي ولد من رحمها، وإذا كانت وجود الأنثروبولوجيا نفسها ارتهن بحاجة الأمريكان آنذاك للتعرف على الإثنولوجيا مجتمعهم فاللسانيات هي الأخرى ستوجد لذلك الغرض وعلى هذا فليس ثمة معنى لمقولة دراسة اللغة لذاتها بل إن اللساني الأمريكي يرى فيها مقولة لفرض الإرادة الأوربية وتصوراتها على الوعي اللساني الأمريكي ومن ثم تصادر اللغات الأمريكية وما تنطوي عليه من لغات وثقافات وتختزل باسم الموضوعية الأوربية وباختزال تعدديّة الثقافة واللغة سيختزل الإنسان نفسه ويبقى الإنسان الأمريكي بديلا عنه.

٢- دعّمت الفلسفات العقلانية الأوربية صياغة إنسان الإثنولوجيا السابيري، مؤكدةً فكرة إن اللسانيات لا بد لها من أن تنشأ على فلسفة ما، وإن ادّعت خلاف ذلك. وقد قوّضت الفلسفة العقلانيّة مقولة كليّة اللغة مستندة على واقع اللغات الهندو أوربية الذي يثبت النسبيّة اللغويّة وأن الطبيعة الثقافيّة للإنسان فذة ومتفردة ومتعددة مكانيّا ولمّا كانت اللغة مكوّن ثقافي، فالأولى دراسة اللغات كل على حدة وفهما على هذا الأساس فخلف البنية اللغوية تستتر الثقافة التي أودعها الإنسان.

٣- ذوبان فكرة النسق اللغوي في نسق الإثنولوجيا؛ مما انعكس على النظرة إلى عقل الإنسان، فإذا كان الإنسان في النسق اللغوي السوسيري خاضع لبنية اللغة من

دون أن يرغمه الشكل على تفكير بعينه – إذ المعنى نفسه في اللغة أي لغة بصرف النظر عن شكلها وللإنسان القدرة على نقله بأي شكل كان – فإن اللغة في النموذج السابيري، ليست شكلًا وحسب بل شكلا يضمر ثقافة وهو عندما يفكر فانه يفكر فيهما معا، وعليه فاللغة تستثقف الشكل وبهذا يصير الشكل ثقافي مهيمنا عقليا، لا يملك الإنسان التخلص من سيطرتها لا بالتفكير بلغة أخرى لها ثقافة أخرى وبعبارة موجزة إنسان الإثنولوجيا خاضع للغة بناء وفكرًا وليس الأول منهما وحسب. حتى لو غيّر في العلاقات البنيوية فانه لن يفلت من سلطة الثقافة المضمرة في الشكل.

٤- شقَّ النموذج الأوربي طريقه في المجتمع العلمي اللساني؛ مما مدّ في حياته طويلا وأخذت مشكلاته تعالج بحلول غير ثوريّة، وحتى تلك الحلول الثوريّة افترضها التوليديون والتداوليون لم توقف قابليّة استمراره إلى جوارها، أما النموذج السابيري، فإنه لم يلق ترحاب مجتمع اللسانيات وبقي حبيس جماعته حتى مات بمماتهم. وتعثره الذي سبب موته ليس لخلل في بنائه المعرفي إنما جزاء لمجيئه على غير السائد العلمي الذي اعتاده اللسانيون الأوربيون آنذاك أي نتيجة لمخالفة مركزية العقل الأوربي هذا من جهة؛ ولأنه عدّ نموذجا طرفيًّا فرضته طبيعة المجتمعات الأمريكي من جهة ثانيّة. ومن جهة ثالثة؛ لأن أشهر تلاميذ بواس لاسيما بلومفيلد وجدوا فيه عائقا لوصفهم اللغات وتصنيفهم، فهو يتطلب مزيد من الثقافة التي ينبغي على اللساني اكتسابها أولًا قبل البحث في اللغة، ومع هذا تبدو اللسانيات الإدراكية اليوم قريبة من هذا النموذج لكنه ليس إلى درجة صلاحيته مرجعية لها.

middle-east2017@hotmail.com ISSN 2536-9504

الهوامش

(١) لمزيد من الاطلاع ينظر اللغة واللسان والعلامة عند سوسير في ضوء المصادر الأصول: ١٥-٥٢

(٢) البحث عن فردينان دو سوسير: ٣٣

(٣) إنسان الكلام: ٢١٧

(٤) ينظر: اللسانيات النشأة والتطور: 188

(٥) ينظر: النظريات اللسانية الكبرى من النحو المقارن إلى الذرائعية: 28

(٦) ينظر: في اللسانيات العامة، تاريخها، طبيعتها، موضوعها، مفاهيمها: 49-٥٠

(٧) في اللسانيات العامة، تاريخها، طبيعتها، موضوعها، مفاهيمها: 53

(٨) النظريات اللسانية الكبرى من النحو المقارن إلى الذرائعية: 28

(٩) ينظر: الاتجاهات الأساسية في علم اللغة : ٢٦.

(١٠) ينظر: الأنثروبولوجيا الألسنية: 102

(١١) اللغة مقدمة في دراسة الكلام: ١: 10

(١٢) ينظر: مدارس اللسانيات التسابق والتطور: 51

(١٣) ينظر: اللسانيات البنيوية منهجيات واتجاهات: 357

(١٤) ينظر: اللسانيات البنيوية منهجيات واتجاهات: 359

(١٥) ينظر: الأنثروبولوجيا الألسنية: 116، و مدارس اللسانيات، التسابق والتطور: 79 – ٨١، و معرفة الآخر، مدخل إلى المناهج النقدية الحديثة: ٥٠.

(١٦) ينظر: الأنثروبولوجيا الألسنية: 126

(١٧) ينظر: الاتجاهات الأساسية في علم اللغة: ٤٤

(١٨) ينظر: الأنثروبولوجيا الألسنية: 127

(١٩) الأنثروبولوجيا الألسنية: 104 – ١٠٥

(٢٠) ينظر: المركزية الغربية، إشكالية التكون والتمركز حول الذات: ٣٠٣.

(٢١) فلسفة اللغة، سيلفان: ١٠٧

(٢٢) الأنثروبولوجيا الألسنية: 105

(٢٣) اللغة، مقدمة في دراسة الكلام: 2: 11

المصادر والمراجع

- الاتجاهات الأساسية في علم اللغة، رومان ياكوبسون، ترجمة علي حاكم صالح، ود.حسن ناظم، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط٢، ٢٠١١م.
- الأنثروبولوجيا الألسنية، السندرو دورانتي، ترجمة فرانك درويش، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط١، ٢٠١٣ م.
- إنسان الكلام، مساهمة لسانية في العلوم الإنسانية، كلود حجاج، ترجمة د رضوان ظاظا، مراجعة د مصباح الصمد، ود بسام بركة، المنظمة العربية للترجمة، ط١، ٢٠٠٣م.
- البحث عن فردينان دو سوسير ميشال اريفيه، ترجمة د محمد خير محمود البقاعي، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، ط١، ٢٠٠٩م.
- فلسفة اللغة، سيلفان اورو، ترجمة عبد المجيد جحفة، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط١، ٢٠١٠م.
- في اللسانيات العامة، تاريخها، طبيعتها، موضوعها، مفاهيمها، د مصطفى غلفان، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط١، ٢٠١٣م.
- اللسانيات البنيوية منهجيات واتجاهات، د مصطفى غلفان، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط١، ٢٠١٠م.
- اللسانيات النشأة والتطور، احمد مومن، دار المطبوعات الجامعية الجزائر، ط٢، ٢٠٠٥م.
- اللغة مقدمة في دراسة الكلام، إدوارد سابير، ترجمة المنصف عاشور، الدار العربية للكتاب، تونس ط٢، ١٩٩٧م.
- اللغة واللسان والعلامة عند سوسير في ضوء المصادر الأصول، د مصطفى غلفان، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، ط١، ٢٠١٧م.
- مدارس اللسانيات التسابق والتطور، جفري سامسون، ترجمة د محمد زياد كبة، مطابع جامعة الملك سعود١٤١٧هـ.
- المركزية الغربية، اشكالية التكون والتمركز حول الذات، د عبد الله إبراهيم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٢، ٢٠٠٣م.
- معرفة الآخر، مدخل إلى المناهج النقدية الحديثة، عبد الله إبراهيم، وسعيد الغانمي، وعواد علي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط٢، ١٩٩٦م.
- النظريات اللسانية الكبرى من النحو المقارن إلى الذرائعية، ماي آن بافو، وجورج اليا سرفاتي، ترجمة محمد الراضي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط١، ٢٠١٢م.

M.E.R.C